الحياة الفكرية في مصر خلال العصر الفاطمي (تميم بن المعز الفاطمي أنموذجا)

م.م. سكينة عبد الكاظم محيسن
كلية التربية/ جامعة القادسية
bdalkadmskynh@gmail.com

الملخص :

هذا البحث يحاول الكشف عن مراحل مهمة في التاريخ الدولة الفاطمية ومراحل تطور الحياة الثقافية في هذا العصر وكيف ساهم الخلفاء الفاطميون بأنشاء العديد من المراكز والمؤسسات الثقافية محاولين جاهدا نشر الثقافة العلمية والأدبية.

كما ساهمت هذه المراكز في نشر المذهب الفاطمي واهتمام الخلفاء الفاطميون بتحويل اهل مصر الى المذهب الشيعي كما سعى الفاطميون على ادخال خصائص المذهب الإسماعيلي في الجوامع الرسمية وهي خصائص لا تختلف كثيرا عن خصائص المذهب السني.

الكلمات المفتاحية: (الجوانب الفكرية للدولة الفاطمية في مصر، العلوم التي اشتغل بها الفطميون، تميم بن المعز الفاطمي).

Intellectual life in Egypt during the Fatimid era (Tamim bin Al-Muizz Al-Fatimi as an example)

millimeter. Sakina Abdel Kazem Muhaisen
College of Education/University of Al-Qadisiyah
bdalkadmskynh@gmail.com

Summary

This research attempts to reveal important stages in the history of the Fatimid state, the stages of development of cultural life in this era, and how the Fatimid caliphs contributed to establishing many cultural centers and institutions, trying hard to spread scientific and literary culture.

These centers also contributed to spreading the Fatimid doctrine and the interest of the Fatimid caliphs in converting the people of Egypt to the Shiite doctrine. The Fatimids also sought to introduce the characteristics of the Ismaili doctrine into the official mosques, which are characteristics that do not differ much from the characteristics of the Sunni doctrine.

key words: (Intellectual aspects of the Fatimid state in Egypt, the sciences in which the Fatimids worked, Tamim bin Al-Muizz Al-Fatimi).

المقدمة:

اهتم الخلفاء الفاطميون بالحياة الثقافية وبأنشاء المراكز الثقافية في مصر ونشر الثقافة العلمية والأدبية فضلا عن نشر العلوم التي اشتغلوا بها والتي كان لها الأثر البارز في النهوض بالمسيرة الثقافية وقتها وقد قسم البحث الى مبحثين حيث تطرق المبحث الاول الى اهم الافكار والفئات الدينية حيث الثقافة المذهبية التي تتصل بالمذهب الاسماعيلي واهتمام الخلافة الفاطمية بتحويل اهل مصر الى المذهب الشيعي بسبب ان مصر هي مقر الخلافة الشيعية، فضلاً عن العلوم التي اشتغل بها الفاطميون وكذلك دور المراكز الفكرية في نشر المذهب الفاطمي ولها اثر كبير في النهوض بالحياة الثقافية.

اما المبحث الثاني كان بعنوان الادب في العصر الفاطمي حيث لعب الشعر دوراً هاماً في الحياة الفكرية عند الفاطميين ومن اهم الشعراء في هذا العصر هو تميم بن المعز الفاطمي.

الافكار والفئات الدينية التي ظهرت في هذا العصر:

أن الخلافة الفاطمية لم تكن فقط ثيوقراطية اساسها الدين ولكنها ايضا متمذهبة لها عقائدها الخاصة حيث كانت العقائد في ذلك الوقت هي التي تسير السياسة والنظم وليس الآراء الاقتصادية أو غيرها فقد كان من اهداف ظهور هذه الخلافة نشر عقائدهم الشيعية بحكم انها الدين الاسلامي الصحيح [1].

لكن اهتمام الخلافة الفاطمية كان اكبر بتحويل اهل مصر الى المذهب الشيعي بسبب ا مصر هي مقر الخلافة الشيعية فقد كان اسلام المصريين في الامر على مذهب الخلافة العباسية المسيطرة آنذاك وهو المذهب السني الذي تمثل في اعتناق المصريين فروعه المختلفة.[2]

كان اول مذاهب السنة التي انتشرت بين المصريين مذهب مالك بن انس سنة 179 ه وذلك بسبب توافر اصحابه الذين جاءوا الى مصر فلما جاء مصر محمد بن ادريس الشافعي سنة 198 ه خص بعلمه اهل مصر وصحبه جماعة من اعيانهم وكتبوا بأنفسهم عنه بحيث تفرق مذهبه من مصر في سائر البلدان واصبحت غالبية مسلمي مصر من ابتاعه وطغى في انتشاره على مذهب مالك. [3]

المذهب الاسماعيلي:

قالو بإمامة إسماعيل بن جعفر ولما توفي اسماعيل سنة 145 ه رأى اتباعه أن الامامة يجب ان تنتقل بعد وفاة جعفر الصادق الى حفيده محمد بن اسماعيل وهو عندهم الامام السابع. [4]

عمل الفاطميون على ادخال خصائص المذهب الاسماعيلي في الجوامع الرسمية وهي خصائص لا تختلف عن خصائص المذهب السني من حيث تناولها الدين الإسلامي فمنذ اليوم الاول الذي دخل فيه الفاطميون مصر جعلوا الاذان في المساجد الجامعة وهي الكبرى بحي على خير العمل بدلاً من حي على الفلاح وذلك أنهم يرون أن عمر بن الخطاب قد غير في الصيغة التي نقلت عن النبي (ﷺ) فقد كان عمر يرى ان الناس اذا سمعوا أن الصرة خير من العمل تهاونوا في الجهاد وكان الجهاد هو اهم همل في وقته. [5]

لما شعر الفاطميون بتوطيد مركز خلافتهم في مصر عمدوا الى نشر عقائدهم بين المصريين بقصد تحويلهم على الشيعة وينسب تنضيم نشر المذهب وعرف بالدعوة فقط أو الدعوة الهادية الى وزير العزيز وهو يهودي قد اسلم هو يعقوب بن كلس الذي عمل على عقد حلقات لشرح المذهب في المسجد الذي بني في عهد المعز سنة 359 ه وتم في عهد العزيز سنة 367 وعرف في ايام الفاطميين باسم جامع القاهرة نسبة الى العاصمة وفي الوقت الحاضر باسم الجامع الازهر نسبة الى فاطمة الزهراء (عليها السلام) وهو اول مسجد فاطمي قام فيه الوزير ابن كلس بشرح المذهب للناس. [6] كما اخذ الفاطميون في الاحتفال بأعياد تتعلق بالمذهب الشيعي وذكرياته وان اجتهدوا أن تكون في اوساطهم الخاصة فاحتفلوا لأول مرة في مصر سنة 362 بعيد الغدير وهو اليوم الذي اوصى فيه النبي بالخلافة من بعده لعلي (عليه السلام) بمكان بين مكة والمدينة عرف بهذا الاسم غدير خم وذلك في 18 من ذي الحجة فكانوا يحتفلون بهذا العيد في القاهرة دون الخروج منها. [7]

في سنة 398 ه أصدر الحاكم مرسوما وفق فيه بين السنة والشيعة فأجاز للشيعة صوم شهر رمضان إذا ثبت لهم رؤية الهلال كما اباح للشيعة ان يكبروا في الصلاة على الميت خمس مرات أنا السنة فأجاز لهم ان يكبروا في صلاة الجنازة اربع مرات وجعل لكل مسلم الخيار في اتباع الرسوم السنية أو الشيعية. [8]

أمر الخليفة العزيز سنة 385 ه بنقش سب الصحابة على الجدران داخل الجامع العتيق وخارجه وعلى ابواب الحوانيت والحجرات وعلى المغاير ولون ذلك كله بالذهب في كثير من احياء القاهرة وفي غيرها من المدن وقد ادت هذه السياسة الى تحويل العديد من السنيين الى المذهب الشيعي. [9]

العلوم التي اشتغل بها الفاطميون:

الطب:

اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الاطباء الاموال واجزلوا لهم المنح وقلدوهم المناصب العالية واصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط وكان من مستلزمات الطبيب ان يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الاجنبية وخاصة السريانية واليونانية بجان المامه بالطب. (10)

من الاطباء الذين نبغوا في هذا العصر كان ابو الحسن علي بن رضوان وهو مصري أصبح بفضل جده واجتهاده رئيس الاطباء في البلاط الفاطمي وتدل الكتب التي الفها في الطب على سعة فكره واطلاعه كما كان له كتب في الفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الحكمة. (11)

كان علي بن رضوان مجدداً في صناعته فلم يعمد في مؤلفاته الى نقل وشرح كتب من كان قبله من الاطباء بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار وظل طيلة حياته في كفاح وعمل متصل الى ان توفى سنة 460 ه في خلافة المستنصر بالله الفاطمي. (12)

ثم ابو عبد الله محمد بن احمد بن سعيد التميمي نشأ في بيت المقدس حيث درس الطب وتنقل في كثير من المدن في طلب هذا العلم كما اتقن طريقة تركيب الادوية من أشهر مؤلفاته كتاب (مخلص النفوس) وهو يعالج عدد كبير من السموم القاتلة. (13)

الرياضيات:

نبغ في العصر الفاطمي عدد كبير من الرياضيين من امثال ابي علي محمد بان الحسن بن الهيثم واصله من البصرة اتى مصر بدعوة من الحاكم بأمر الله لما بلغه أن له نظرية هامة في توزيع مياه النيل امتاز ابن الهيثم بغزارة علمه وسعة اطلاعه فكان مصدر حركة فلسفية كبيرة وخاصة في الطبيعيات والرياضيات وقد ألف نحو مائتي كتاب في الرياضيات والطبيعة والفلسفة ولم يزل مكباً على التأليف حتى توفي سنة 430 ه. (14)

الفلك والنجوم:

اعتمد الفاطميون على الفلك والتنجيم في توجيه سياستهم حيث انهم اختاروا بان حوشب لرياسة دعوتهم في بلاد اليمن لأنهم عرفوا من طريق النجوم انه يكون له شأن في نشر هذه الدعوة في تلك البلاد. (15)

أن القائد لما اراد بناء القاهرة احضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر ليقيم بها الجند وامرهم باختيار طالع سعيد لوضع الاساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم ابداً ويقال أن المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضوع الاساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة. (16)

كذلك اهتم الخليفة الحاكم الفاطمي بعلم النجوم فأنشأ مرصداً عند سفح جبل المقطم اطلق عليه (الرصد الحاكمي) وأوكل امر ادارته الى ابي الحسن علي بن يونس المنجم المصري المتوفي سنة 399 ه. (17)

لكن الحاكم بأمر الله ما لبث أن أصدر امراً في سنة 404 ه نهى بموجبه دراسة النجوم والفلك ونفى جميع المنجمين عن البلاد الا ان تدخل قاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقي جعلت الحاكم يلغي عقوبة النفي بعد أن اعلنوا توبتهم. (18)

التاريخ:

كان لتشجيع الفاطميين للعلماء والكتاب أثره في ظهور طائفة كبيرة منهم في مصر فاشتهر من المؤرخين في هذا العصر ابو الحسن علي بن محمد الشابشتي الذي عمل بخدمة الخليفة العزيز فولاة خزانة كتبة واتخذه من جلسائه وتوفي سنة 388 ه في ايام الحاكم بأمر الله واشهر مؤلفاته كتاب (الديارات) اورد فيه اخبار عن أديرة العراق والجزيرة والشام ومصر وما قيل في كل منها من الاشعار وما جرى فيها من حوادث وأمور. (19)

كما نبغ المؤرخين في هذا العصر الامير المختار عز الملك محمد بن ابي القاسم المعروف بالمسيحي ولد بمصر وكان من جلساء الخليفة الحاكم بأمر الله وقد تولى المناصب الهامة وشغف بكتابة التاريخ وألف عدة كتب منها (تاريخ مصر). (20)

من اعلام المؤرخين ابضاً ابو عبد الله القضاعي الذي ولد في مصر في اواخر القرن الرابع الهجري توفي سنة 454 ه وكان من اقطاب الحديث والفقه الشافعي وقد ولي القضاء وغيره من مهام الدولة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي من اشهر مصنفاته في الفقه والتاريخ كتاب (مناقب الامام الشافعي) وكتاب (تواريخ الخلفاء) و(خطط مصر). [21]

الفلسفة:

أن تعصب الفاطميين لمذهب شيعي له اسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة في مصر أدى الى ظهور فريقين من الفلاسفة يعمل أولهما على تأييدهم ويفند الاخر آرائهم. [22] كان لأبي حنيفة النعمان المغربي وابناءه وهم جميعاً من كبار رجال القضاء والادب الفضل الاكبر في نشر الثقافة المذهبية اتي تتصل بالدعوة الاسماعيلية وقد عامر ابو حنيفة الفاطميين في المغرب وكان مالكي المذهب ثم تحول الى المذهب الاسماعيلي وقدم الى مصر وله في الفقه الاسماعيلي عدة مؤلفات منها (دعائم الاسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والاحكام) ويضيف الى قواعد الاسلام الخمس الولاية وهي حب اهل البيت والطهارة. [23]

كان دعاة الاسماعيلية يرجعون الى كتاب (دعائم الاسلام) احكامهم ونهج الوزير يعقوب بن كلس في كتابه (مصنف الوزير) منهج كتاب الدعائم وكان المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي يقرأ كتاب الدعائم في مجالسه وفي ذلك يقول (وكان بناء المجالس التي تعقد بحضرته في ليالي الجمعات على ان يبتدئ بقراءة شيء من قوارع القرآن) ومن كتاب (دعائم الاسلام). [24]

من فلاسفة هذا العصر حميد الدين احمد بن عبد الله الكرماني كان من دعاة الفاطميين في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ويلقب بحجة العراقيين وقد ترك هذا العالم عدداً كبيراً من المؤلفات اشهرها كتاب (راحة العقل) الذي يدل على تبحر المؤلف في الفلسفة واحاطته بشاردها وواردها ويتبين بوضوح أن مؤلفه لم يهدف الى دراسة المذهب الاسماعيلي فحسب بل أنه عرض الكثير من المشكلات التي تدور عليها مباحث المتكلمين ومناهجهم ومناهج الفلاسفة ومذاهبهم ولهذا اعتبر الكرماني شيخ فلاسفة الاسماعيلية. [25]

ثم جعفر بن منصور بن حوشب الذي تمتع بمركز رفيع في الدولة الفاطمية في المغرب ثم مصر وكان موضع تقدير الخلفاء الفاطميين ومحبتهم ومن اشهر اثاره العلمية كتاب (تأويل الزكاة). [26] تميزت الدعوة في عهد الفاطميين بتوسعها في العلوم الفلسفية او ما عرف بالتعبير الاصطلاحي (علم الحقائق) وتعني الحقائق المختفية في الباطن وهي خالدة وتعتبر العبادة العلمية فالفلسفة الاسلامية كانت في اوجها على يد الفيلسوف الشيخ الرئيس ابن سينا الذي قيل انه نفسه من دعاة الاسماعيلية وقبله مباشرة الفارابي المعلم الثاني والكندي فيلسوف العرب وحاول التوفيق بينها وبين العقائد الاسلامية. [27]

الازهر:

بدأ الازهر كغيره من المساجد لإقامة الشعائر الدينية فكان مركزاً لفقهاء المذهب الشيعي يحاضرون الناس في عقائد المذهب الاسماعيلي وقد كان الهدف من بناء الازهر هو اقامة الشعائر الشيعية فيه وتجنب الاحتكاك بمساجد المصريين السنة وقد ظهرت فكرة الدراسة فيه في اواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي حين قام قاضي القضاة ابو الحسن علي بن النعمان بشرح كتاب (الاقتصار) الذي وضعه ابوه يشمل على مسائل فقهيه استمدها من ائمة اهل البيت (عليهم السلام). [28]

كان الخلفاء الفاطميون منذ عهد المعز يحتفلون بإقامة الصلوات يوم الجمعة والاعياد في الجامع الازهر وكانت جميع مساجد القاهرة تتبع في الاذان اصوات المؤذنين في الازهر بالاستناد الى مزولة تحدد اوقات الصلوات الخمس لا تزال قائمة الى اليوم على أحد جدران صحن الازهر. [29]

في اوائل عهد العزيز بالله حلس الوزير يعقوب بن كلس بالجماع الازهر وقرأ على الناس رسالة الفها في الفقه الشيعي على المذهب الاسماعيلي تسمى (الرسالة الوزيرية) تضمنت ما سمعه في ذلك من الخليفة المعز وولده العزيز وكان يفد الى سماعه الفقهاء والقضاة وأكابر رجال الدولة. [30]

في سنة 378 ه اشارة الوزير يعقوب بم كلس على الخليفة العزيز بتحويل الازهر الى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية فأصبح الازهر مثابة علمية فاقت شهرته جميع المساجد الجامعة في مصر واستأذن ابن كلس الخليفة في أن يعين بالأزهر بعض الفقهاء للقراءة والدرس على أن يعقدوا مجالسهم بهذا الجامع في كل جمعة من بعد الصلاة بعد العصر فرحب العزيز بذلك ورتب لهؤلاء الفقهاء ارزاقاً شهرية وأنشأ لهم داراً للسكن بجوار الازهر. (31)

رغب الخلفاء الفاطميون في جعله من الاهمية وعظم الشأن بحيث يجتذب طلاب العلم من كافة ارجاء البلاد الاسلامية وبذلك يكون المسجد دار عامة للمسلمين ومركزاً علمياً ودينياً للطلاب وظل الازهر مركز الفقه الفاطمي الى أن بني جامع الحاكم بأمر الله فأنتقل اليه الفقهاء لألقاء دروسهم. (32)

المكتبات:

أهتم الفاطميون بإنشاء المكتبات وتزويدها بعدد من الكتب التي تتناول شتى فروع العلم فالحقوا بالقصر الشرقي الكبير مكتبة فاقت كل المكتبات الاسلامية بما في خزائنها من كتب قيمة كانت مكتبة القصر تضم اربعين خزانة كتب في سائر العلوم وتحتوي كل خزانة على عدة رفوف والرفوف مقطعة بحواجز وفيها من اصناف الكتب ما يزيد على مائة الف مجلد في الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والفلك والكيمياء. (33)

وصف المؤرخ ابو شامة مكتبة القصر فقال (لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التي كانت في القاهرة في القصر ومن عجائبها انه كان فيها الف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري ويقال انها كانت تشتمل على ستمائة الف كتاب وكان فيها من الخطوط المنسوبة اشياء كثيرة. (34)

كان تجار الكتب يعرضون على موظفي مكتبة القصر اندر الكتب التي يعثرون عليها ويذكر المقريزي أن رجلاً احضر الى العزيز بالله نسخة من تاريخ الطبري كان قد اشتراها بمائة دينار فأصر الخليفة خازن المكتبة ان يحصل على نسخ اخرى من هذا الكتاب فأخرج من الخزائن ما يزيد عن عشرين نسخة منها نسخة بخط الطبري نفسه كما كان بخزانة العزيز ما يزيد على ثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن احمد. (35)

كان من عادة الحليفة اذا زار مكتبة القصر الشرقي أن يأتي راكباً ثم يرتجل ويأخذ مجلسه فوق دكة منصوبة ويمثل بين يديه خازن المكتبة ويأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين ويعرض عليه ما يقترح شراءه من الكتب أو ما يريد الخليفة جمله لقراءته في مجلسه الخاص. (36)

فقد كانت مكتبة القصر الفاطمي عدداً غير قليل من الكتب القيمة التي كانت بها نتيجة المصائب والبلايا التي حلت بالدولة الفاطمية في عهد الخليفة المستنصر(427 ه – 487ه) فاستولى الجند الامراء على الكثير مما في خزانة الكتب. (37)

على الرغم من ذلك استطاع الفاطميون أن يعيدوا الى هذه المكتبة شيئاً من سابق عظمتها وروائها أما بإعادة بعض كتبها التي ضاعت في هذه المحن او بإضافة كثير من الكتب الجديدة حتى اصبح في قصر العاضد اخر الخلفاء الفاطميين مكتبة كبيرة. (38)

دار العلم:

من مراكز الثقافة الفاطمية بمصر دار الحكمة التي انشأها الحاكم بأمر الله سنة 395 ه وأطلق عليها هذه التسمية رمزاً الى الدعوة الشيعية التي كانت تسمى مجالسها بمجالس الحكمة فالتحق بها عدداً من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغوين والاطباء وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبة عرفت باسم دار العلم حوت الكثير من الكتب في سائر العلوم. (39)

في ذلك يقول المقريزي (وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك وأباح ذلك كله لسائر الناس على فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعلم وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر). (40)

اختلفت مناهج التعليم في دار الحكمة عن مناهج التعليم بالمساجد الفاطمية المعاصرة اذ كانت تغلب عليها الصفة العلمية بينما كانت تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية ومن أشهر اساتذة دار الحكمة ابن يونس المنجم وابو علي الحسن ابن الهيثم وعلي بن رضوان وقد استطاعت دار الحكمة بفضل هؤلاء الاساتذة وما كان لها من مناهج متنوعة جمعت بين العلوم النقلية أو الشرعية والعلوم العقلية أو الحكمة. (41)

قصور الخلفاء والوزراء:

كان من شدة ولع الخلفاء ووزرائهم بتشجيع الحياة الثقافية فقد اصبحت قصورهم من مراكز الحركة العلمية في مصر ففتح الخليفة المعز لدين الله ابواب قصره للعلماء والطلاب واباح لهم جميعاً الاطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر وحذا الخلفاء من بعده حذوه ففي سنة 403 ه عقد الحاكم بأمر الله في قصره مجلساً من مشاهير العلماء في الرياضة والمنطق والفقه والطب وغيرها من العلوم فتناظروا في شتى المسائل وعند انتهاء المجلس منح الخليفة لهؤلاء العلماء الجوائز. (42)

كما جعل الوزير أبن كلس قصره ملتقى القضاة والفقهاء واساتذة القراءات والنحاة وعلماء الحديث وكبار رجال الدولة من اصحاب المواهب الممتازة وكان يتقدم اليه الشعراء حيث ينتهي الاجتماع فينشدونه مدائحهم. (43)

كان يوجد في قصره عدد كبير من الموظفين يشتغل بعضهم بكتابة نسخ من القرآن وبعضهم ينسخ شيئاً من كتب الحديث والفقه والادب وبعض كتب العلوم حتى الطب وكان هؤلاء النساخ يراجعونه ويكتبونه ويضيفون اليه علامات الشكل والنقط وأجرى ابن كلس على القراء والائمة في قصره الرواتب الخاصة ووكل اليهم اقامة الصلاة في المسجد الذي بناه وكان الفقيه الحسين بن عبد الرحيم الملقب بالزلازلي صحاب كتاب (الاسجاع) من رواد مجلس هذا الوزير. (44)

الادب في العصر الفاطمي (تميم بن معز الفاطمي)

اصبحت مصر في العصر الفاطمي ملاذ الشعراء يلجأون اليها رغبة في التمتع بتعضيد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من كبار رجال الدولة وأن مائة شاعر قاموا برثاء الوزير يعقوب بن كلس وأن جميعهم اجيزوا بما شجعهم لذلك ازدهر الشعر في عهد الفاطميين. (45)

انتشر في مصر في عهد الفاطمي الحفلات الرسمية ومن هذه الاعياد هي اعياد اسلامية حيث كان الاحتفال يبدأ بالاستماع الى القرآن الكريم من قراء مخصوصين بالقصر فاذا فرغوا القى شعراء الدولة قصائدهم فكان الحاضرون ينقدون لكل شاعر ويحسنون ما حسن أو يعيبون ما يعاب. (46)

تميم بن المعز الفاطمي (337 ه – 375 ه):

هو الامير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي وهو الشاعر الذي يقرن دائما بالشاعر ابن المعتز العباسي لما بينهما من تشابه فكلا الشاعرين من بيت خلافة وكلا الشاعرين من شعراء البديع وكلاهما ممن اكثر من الوصف والمجون وكلاهما دافع عن عقيدته وحق ذويه في الخلافة فهما متشابهان في امور كثيرة جعلت مؤرخي الادب العربي يقرنون بينهما دائماً. (47)

ولد تميم سنة 337 ه في مدينة المهدية بالمغرب الاوسط وهي المدينة التي بناها عبيد الله المهدي سنة 308 ه وجعلها عاصمة لدولته الفاطمية، قدم تميم الى مصر وهو في سن الخامسة والعشرين من عمره وسكن القصر الكبير في القاهرة ومن الواضح أن المعز لدين الله كان شديد الحرص على الا يعهد الى تميم بأي عمل من الاعمال.

امتاز شعر تميم بالرقة والعذوبة والتشبيهات الجميلة وقد نلمس في روحه الشعرية الصفة المصرية والذوق الاندلسي الذي صبغ شعره بلونه الجذاب وديباجته الرائعة وموسيقاه الشجية، ونرى في شعره ايضاً جلباباً نسجه البيان المغربي الساحر ودبجه خيال قرطبة واشبيلية وغيرهما من المدن الاندلسية التي نقشت فيها الطبيعة أبدع صورها والوانها. (48)

مات تميم سنة 375 ه فيكون قد عمر ثمانية وثلاثين عاماً ودفن في القاهرة المعزية في المقبرة الفاطمية المعروفة بقبة الزعفران وكان على فراش الموت يردد:

الى كم تهدم الاحداث ركني وترميني بجور واعتداء
يعاقبني الزمان بغير ذنب وتخذلني يدي وذوو اصطفائي
حياتي بين واش أو حسود وساع بي يسر بطول دائي [49]

ولد الامير تميم بالمغرب وفيها نشأ مع اخوته عبد الله ونزار وعقيل وكان تميم اكبرهم سناً، فلم يشك الناس في أن ولاية العهد ستكون له، ولكن المعز لدين الله صرفها عنه إلى أخيه عبد الله ولعل السبب الذي من أجله صرف تميم عن إمامة الفاطميين هو ما عُرِف عن تميم من مجون وفجور فكان يشاع عنه وعن سيرته السيئة ما حدا بأمير صقلية أحمد بن الحسن الكلابي أن يستأذن المعز في أن يقتل أحد أبنائه لأنه كان يساير الأمير تميمًا ويشاركه في لهوه وفسقه.[50]

أن المعز لدين الله كني بأبي تميم ومعنى هذا ان تميم هو الابن الاكبر للمعز لدين الله وكان ابناء المعز نشأو جميعهم في قصر الخلافة في المهدية ثم المنصورية وأخيراً جاءوا الى مصر مع والدهم. [51]

ويحدثنا صاحب سيرة الأستاذ جوذر أن المعز أرسل إلى أمير صقلية ردَّ خطابه وفي هذا الخطاب ألم المعز وغضبه لما عُرِف عن تميم من فسق وفجور ولما فُتِح مصر انتقل الأمير تميم إليها مع أبيه وباقي أسرته وفي مصر توفي عبد الله ولي العهد فجعل المعز ولاية العهد إلى ابنه الثالث نزار الذي لُقِّب بالعزيز.[52]

ولعل هذا هو السر فيما نراه من حزن دفين ظهر في شعر الأمير تميم إذ كان يمدح أخاه الصغير العزيز بالله ولكنه لم يستطع أن يخفي ما في نفسه من آلام وشعور بحنق وغيظ كان يحاول إظهار تجلُّده وصبره ولكن عاطفته في الشعر هي عاطفة القانط الحاقد فهو يقول مثلًا من قصيدة في مدح العزيز:

تهون عليَّ صغار الأمور ويصغر عني جميع الورى
أنا ابن المعز سليل العلا وصنو العزيز إمام الهدى
وما احتجت قطُّ إلى ناصر ولا رحت يومًا ضعيف القوى
ولم أستشر في ملم يئوب مشيرًا أرى منه ما لا أرى
ولست بوانٍ إذا ما أمر زمان ولا فرح إن حلا [53]

فهذه الأبيات تظهر فيها قوة الفخر بنفسه وبنسبته للأئمة الفاطميين وعدم مبالاته بصروف الدهر ولكن يُستشَف منها دخيلة نفس الشاعر تلك النفس الناقمة الحاقدة ويقول يفتخر أيضًا :

ليس من ساد عن ورائة جد أو لِحَظٍّ من الحظوظ مباح
يستحق الثنا ويستوجب الشكـر ويحوي مدائح المداح
إنما السيد المعلى المفدى من علا للعلا صدور الرماح
ورمى ليل كل خطب بهيم بذكاء أضوا من المصباح
واقتنى العز بالظبا والعوالي واشترى الحمد بالثنا والسماح
فكذا تنتمي المكارم والمجـد ويستبعد العدو الملاحي [54]

كما اعطى تميم للطبيعة القسم الاكبر من اهتمامه فغناها اطيب الحانه عندما تكون اكمام الرياح محملة بفتات المسك وعناقيد اللؤلؤ الابيض محلقة في اعناق النسرين وبراعم الورد الاحمر تعانق اوراق الاغصان، وحينما تتجاوب الخمائل بانغام الاعواد وصخب السقاة المخمورين وقبل العشاق والسمار:

ذكرني النسرين لما اتي ريح حبيب علي اطال الصدود
كأنما قبلت من نثره بيض الثنايا واحمرار الخدود
ما أجود النسرين لكنه ذكرني هاجراً لن يعود

ويغيب من الليل ما يشاء وكأنه راهب يجلس امام شاطئ النيل الهادئ ساعة الدغشة المتلألئة يقطف منها الصور والألوان ليضعها على لوحاته الخالدة:

اما ترى حركات الريح مخبرة ان الغمام يصوب الأرض بالمطر
فالجو ملتحف بسطاً مفوفة كأنهن اختلاف الوشي والحبر
كأن برد نسيم الغيم حين بدا برد ارتشاف حبيب زار في السحر

والنجوم امامه ترمي شعاعاتها من الازرق حفنة ومن الاخضر حفنات عندما يكسو الضباب شاطئ النهر كالغلالة الشفافة وحينا يهب النسيم العليل ليداعب الورد النابت على جوانب الماء هامس في اذنه اغاني الحب والشوق والجمال.

اذا حان من شمس النهار غروب تذكر مشتاق وحين غريب [55]
واني لأهوى الريح من كل ما بدا برياه من ريح الشمال هبوب

فيبدأ تميم طردته مستمدا مطلعها من مخزون ثقافي عربي جاهلي يحاكي فيه معظم الشعراء الجاهليين الذين وصفوا الفرس كجندل بن سلامة السعدي في بدائيته والطفيل الغنوي وعنترة بن شداد وأشهرهم امرؤ القيس الذي حاكى كثير من الشعراء وصفه لفرسه في معلقته فقال:

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمجرد قيد الأوابد هيكل[56]

لكن شاعرنا تميماً اغتدى للصيد والليل ما زال مظلما دامسا والصبح لم توقظه الأنوار بعد:

قد أغتدي والليل في دجاه والصبح لم ينهض به سناه
على حصان شنج نساه أنبط نهير علي شواه
سامي التليل سالم شظاه ذي غرة أولها أذناه
جاز بها مسيلها مداه حتى لقد كادت تغطي فاه
مستكمل التحجيل مستوفاه أربعه وبطنه أشباه
مخالف أسفله أعلاه بدهمة قد ملأت قراه
وانصبغت منه أليتاه فهو دجى يحمله ضحاه [57]

هذا التشابه بين مطلعي وصف الفرس عند الشاعرين أراد به تميم أن يتحدى الوصف الشهير العالق في ذهن القارئ العربي ليثبت جدارة شعرية وتفوقا إذ اعتدنا في الطرديات أن يكون الفرس مركز الحدث وأصالة صفاته إنما هي دليل على صفات الفارس فمدح الفرس هو مدح مبطن للفارس. تقاس أصالة الفرس الموصوف بعناصر عدة أهمها شكله لونه وسرعته وقد أفسح تميم مساحة من ستة أبيات ليصف منظر الحصان ولونه فهو حصان منقبض يخرج عرقه من الورك. [58]

فقد وصف سرعة الفرس فخطاه تسبق أقصى نقطة يلحظها ويراها بعينيه يتحرك بسرعة فلا يكر ويفر معا كجلمود صخر حطه السيل من علي ثم يصف حواسه مشركا كل أعضاء الحصان في وصف سرعته.

تسبق أقصى لحظه خطاه لا يطأ الترب ولا تلقاه
رجلاه في العدو ولا يداه كأنه يطير في مجراه
إذا دعا ليث الفلا لباه أسرع للشيء إذا ابتغاه [59]

أن الامير تميم بن المعز لدين الله قد مدح اباه واخاه الامام بعدة قصائد حفظت في ديوانه، فرأينا الشاعر يصف الإمام بالمصطلحات الفاطمية ويلم في شعره بعقائد أسرته فهو يقول مرة للعزيز بالله :

جئتَ الخلافة لما أن دعتك كما وافى لميقاته موسى على قدر
كالأرض جاد عليها الغيث منهملًا فزانها بضروب الروض والزهر
ما أنت دون ملوك العالمين سوى روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف تناهى منك جوهره تناهيًا جاز حد الشمس والقمر

ففي هذه الأبيات نرى الشاعر يمدح إمامه بأنه ليس كغيره من الملوك؛ لأن نفس الإمام الشريفة اللطيفة هي روح قدسية حلت في جسم كثيف ترابي. [60]

كما يصف الإمام بمعانٍ باطنية فمناسك الحج في التأويل الباطن هي محمد (ﷺ) وبما أن الوصي والأئمة يقومون مقام النبي بعد موته فهم يوصفون بصفاته ويكرّر هذا المعنى في أكثر قصائده كقوله:

وابن الصفا والحجر وابن الهدى وابن نبي الهدى وابن الكتاب[61]

الخاتمة:

حكموا الفاطميون مصر لفترة تزيد على القرنين من الزمان (358 – 567 ه) وتمتعت مصر خلال هذه الفترة بانفصال سياسي كامل عن الخلافة العباسية فقد اهتمت الخلافة الفاطمية على تحويل اهل مصر الى المذهب الشيعي بسبب أن مصر هي مقر الخلافة الشيعية كما عمل الفاطميون على ادخال خصائص المذهب الاسماعيلي في الجوامع الرسمية وهي خصائص لا تختلف عن خصائص المذهب السني.

بعد دخول القائد جوهر الصقلي فاتحاً لمصر بأسم الفاطميين فقد وضع جوهر اساس مدينة القاهرة بدأ في التمهيد لاتخاذها حاضرة للدولة الفاطمية فأمر بحذف الدعوة للخلافة العباسية وضرب السكة بأسم الخليفة الفاطمي المعز ومنع الناس من ليس السواد شعار العباسيين رحب المصريون بهذه التغيرات الدينية التي ادخلها جوهر الصقلي الى مصر. تطور الدولة الفاطمية بشكل كبير وذلك من خلال العلوم التي عمل بها الفاطميون واصبح العلماء لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط. اعتبار المراكز الفكرية لها دور كبير في نشر المذهب الفاطمي كذلك يعتبر جامع الازهر كغيره من المساجد لإقامة الشعائر الدينية. ازدهار الشعر في العصر الفاطمي فأصبحت مصر ملاذ الشعراء يلجأون اليها رغبة في التمتع بتعضيد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من كبار رجال الدولة. وبرز في العصر الفاطمي العديد من الشعراء ومن بينهم تميم بن المعز الفاطمي حيث تميز شعر تميم بالتمجيد للفاطميين.

هوامش البحث:

1- ينظر: ماجد، عبد المنعم، تاريخ الخلافة الفاطمية، (دار الفكر، عمان،2011 م) ،ص 203.

2- ينظر: سالم، سحر السيد عبد العزيز، دراسات في تاريخ مصر في العصريين الايوبي والمملوكي، (مؤسسة شباب الجامعة، اسكندرية،2005م) ، ص 11.

3- ينظر: ماجد، تاريخ الخلافة، ص 204.

4- ينظر: دعكور، عرب حسين، الدولة الفاطمية التاريخ السياسي والحضاري، ط 1،(دار المواسم، بيروت، 2004م)، ص 24.

5- ينظر: ماجد، تاريخ الخلافة، ص 206.

6- ينظر: دعكور، الدولة الفاطمية، ص 232.

7- ينظر: ماجد، تاريخ الخلافة، ص 208.

8- ينظر: المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت: 845 ه)، المواعظ والاعتبار يذكر الخطط والاثار، (دار الفكر العربي، بيروت، 1856م)،ص 287.

9- ينظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ص 386.

10- ينظر: دعكور، الدولة الفاطمية، ص 243.

11- ينظر: دعكور ، الدولة الفاطمية ، ص245.

12- ينظر: حسن، حسن ابراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية،(النهضة المصرية، القاهرة، 1959م)، ص165.

13- ينظر: دعكور، الدولة الفاطمية، ص 243

14- ينظر: امين، احمد، ظهر الاسلام، القاهرة، 1945 م، ص 204.

15- ينظر: عمارة اليمني، ابو محمد عمارة بن ابي الحسن علي بن زيدان بن احمد اليمني (ت: 569ه)، تاريخ اليمن، (لندن، 1892م) ، ص 140.

16- ينظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ص 377.

17- ينظر: ابن خلكان، شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم بن ابي بكر الشافعي (ت: 681 هـ)، وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، (بولاق، 1869م)، ج3، 375.

18- ينظر: دعكور، الدولة الفاطمية، ص 244.

19- ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، ج3، ص319.

20- ينظر: السيوطي، عبد الرحمن بن ابي بكر جلال الدين (ت: 911 هـ)، حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، (القاهرة، 1904م)، ج2، ص 319.

21- ينظر: امين، ظهر الاسلام، ص 204.

22- ينظر: امين،ظهر الاسلام،ص 188.

23- ينظر: دعكور، الدولة الفاطمية، ص 241.

24- ينظر: دعكور، الدولة الفاطمية، ص 241.

25- ينظر: حميد الدين احمد بن عبد الله (ت: 408 هـ)، راحة العقل،(دار الفكر العربي، القاهرة، 1953م) ، ص 11.

26- ينظر: حسن، تاريخ الدولة ، ص 485.

27- ينظر: ماجد، تاريخ الخلافة ، ص 212.

28- ينظر: دعكور، الدولة الفاطمية، ص 231.

29- ينظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ص 275.

30- ينظر: دعكور، الدولة الفاطمية، ص 232.

31- ينظر: حسن، تاريخ الدولة ، ص 536.

32- ينظر: حسن، حسن علي، تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، ط1،(مكتبة الفلاح، الكويت، 1986م) ، ص 302.

33- ينظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ص 200.

34- ينظر: دعكور، الدولة الفاطمية ، ص 245.

1- المواعظ والاعتبار، ص 408.

36- ينظر: دعكور، الدولة الفاطمية، ص 234.

37- ينظر: دعكور، الدولة الفاطمية، ص 234.

38- ينظر: حسن، زكي محمد، كنوز الفاطميين، القاهرة، 1937، ص 29.

39- ينظر: دعكور، الدولة الفاطمية، ص 235.

40- المواعظ والاعتبار، ص 458.

41- دعكور، الدولة الفاطمية، ص 236.

42- ينظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ص 459.

43- ينظر: دعكور، الدولة الفاطمية، ص 236.

44- ينظر: حسن، تاريخ الدولة، ص 426.

45- ينظر: دعكور، الدولة الفاطمية، ص 240.

46- ينظر: ماجد، تاريخ الخلافة، ص 200.

47- ينظر: حسين، محمد كامل، في ادب مصر الفاطمي، ط1، (القاهرة، 2012م) ، ص 209.

48- ينظر: تامر، عارف، المعز لدين الله الفاطمي، ط1،(دار الافاق الجديدة، بيروت، 1402 هـ) ، ص 231 – 232.

49- ينظر: تامر، المعز لدين الفاطمي، ص 234 – 235.

50- ينظر: حسين، في ادب مصر الفاطمي، ص 209.

51- ينظر: تامر، المعز لدين الله الفاطمي، ص 231.

52-ينظر: حسين، في ادب مصر الفاطمي، ص 209.

53- ينظر: حسين، في ادب مصر الفاطمي، ، ص 210.

54- ينظر: حسين، في ادب مصر الفاطمي، ص 210

55- ينظر: تامر، المعز لدين الله الفاطمي، ص 235.

56- ينظر: جرجوري، د. راوية، الشعر الفاطمي بين المعاني الدنيوية والعقائدية ، ط1،(مكتبة كل شيء – حيفا، 2013م) ، ص 105

57- ينظر: جرجوري، د. راوية، الشعر الفاطمي بين المعاني الدنيوية والعقائدية، ص 105.

58- ينظر : جرجوري، رواية الشعر الفاطمي بين المعاني الدينية والعقائدية ، ص 105.

59- ينظر: جرجوري، د. راوية، الشعر الفاطمي بين المعاني الدنيوية والعقائدية، ص 106.

60- ينظر: حسين ،في ادب مصر الفاطمية، ص 182.

61- ينظر: حسين، في ادب مصر الفاطمية، ص 183.